التاريخية، مخلّين بذلك بأبسط قواعد المنهجية العلمية السليمة، التي تدعو الى نقد المصادر عند استعمالها. وقد دعا ابن خلدون منذ ستة قرون، الى ذلك في بداية مقدمته الشهيرة، وذكر أمثلة لمبالغة المؤرخين القدماء ولما ورد في تآليفهم من أخطاء. ولم يتحرج المؤرخون الغربيون من ايراد الأخبار الرامية الى الاساءة بالعنصر العربي التي روّجتها الشعوبية، في كثير من الأحيان.

وقد نتج عن ذلك أن ما كتبه المؤرخون الفرنسيون عن تاريخ الجزائر في العصر الوسيط يحمل طابع التعصب والتحيّز، مما يجعلنا لا نطمئن لآرائهم حول القضايا الجوهرية، ويدعونا الى اعادة كتابة تاريخنا. ونشتم رائحة العداء للعرب والإسلام كلّما تعلّق الأمر بحادث يحتل مكانة هامة في تطور بلادنا السياسي والحضاري، فنرى تأويلهم للأخبار يحاول دائما أن يقلّل من شأن ذلك التطور. وهذا يلاحظ مثلا في معالجتهم للفتح الاسلامي ولموقف الأهالي منه، وفي تطرقهم للتطور المذهبي والحياة الفكرية في مختلف الفترات ، وللصراع الذي خاض غماره المسلمون ضد المسيحية والصليبيين، وغير ذلك مما يطول سرده.

حول منهج كتابة المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

محمد بن عميرة

ان موضوع «منهج كتابة المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الفتح الاسلامي لبلاد المغرب» يقتضي الرجوع الى أعمال هؤلاء الفرنسيين الذين كتبوا عن الفتح الاسلامي لبلاد المغرب مع استخدام المصادر الأساسية التي استفاد منها هؤلاء المؤرخون أنفسهم مثل:

- فتوح مصر والمغرب وافريقية والأندلس، لابن عبد الحكم.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذاري المراكشي.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير.
- كتاب العبر، لابن خلدون (عبد الرحمن)
- المؤنس في أخبار افريقية وتونس، لابن أبي دينار.

وجمعت كل ما ورد فيها في موضوع الفتح ثم صغته في نص واحد متكامل.
كما انتقيت أيضا عددا من أهم المؤلفات الفرنسية التي أهتمت بنفس النقاط وهي:

Terrasse (H.) : Histoire du Maroc. T I-II.
Julien (Ch'A.) : Histoire de l'Afrique du Nord.T.II.
Gautier (E.F.) : Le passé de l'Afrique du Nord.
Marçais (G.) : La Berbere Musulmane et l'Orient au moyen-âge.

Maucier (E.) : Histoire de l'etablissement des Arabes dans l'Afrique septentionale.

ثم قمت بعمل مماثل للأول وأخيرا لجأت الى المقارنة بينهما مسلطا الأضواء على الجديد الذي جاءت به قرائح أصحاب هذه المدرسة. وأول ما لفت نظري في هذا الصدد أن بعضهم[1] تطرق عكس المصادر العربية الى أسباب الفتح وحصرها.

أولا: في تردد «الاسلام» أمام شساعة آسيا الوسطى أو الهندية وتعثره أمام الحاجز البيزنطي بالناحية الشمالية الشرقية، مما جعله يبحث في جهات أخرى عن فتوحات جديدة.

ثانيا: في انتقال الخلافة الى الأمويين ونقل مقرّها الى دمشق حيث أن هذين الحدثين جعلا الإسلام في مدرسة سوريا (القديمة)، يجمع تدريجيا إرث العالم الهليني. ثم انقلب التفوق الحضاري الذى كانت سوريا تنعم به منذ عدة قرون في عالم البحر الأبيض المتوسط، إلى تفوق سياسي. فالسوريون الذين أصبحوا في خدمة الخليفة الجديد، كانوا يعرفون طرق البحر الأبيض المتوسط، اذ لم تكن جالياتهم التجارية بالموانئ فحسب، بل في كل المدن الكبرى للامبراطورية الرومانية القديمة، والأساطيل السورية هي التي زوّدت الإسلام بقواته البحرية الأولى ومكنته في وقت قصير، من السيطرة البحرية ، وصار في مقدور البحرية الأموية أن تدعم جهودا جديدة لجيوش الإسلام في مناطق الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

ثالثا: إن شمال إفريقيا وشبه جزيرة ايبيريا كانتا أقل تأثرا بالغزوات الجرمانية البربرية، بالنسبة لبلدان امبراطورية الغرب القديمة، وقد تكون شهرة خصوبة أراضيها هي التي جذبت الجيوش الإسلامية ، حيث ان الغارة كانت أول عمل للفتح وان تلك الجيوش بعد الانتصار، عاشت بفضل استغلال البلاد المفتوحة. ومن ثم فإن الخلافة الأموية تمكنت بشرق بلاد المغرب، من هزيمة البيزنطيين ومن استيلائها منهم، على جزء كبير من السواحل المغربية التي سبق لجستنيان آن استعاده كما أضعفت قوتهم البحرية.

رابعا: كان على الخلفاء الأمويين أن يوسعوا حدود الإسلام، لتبرير لقبهم،

واثبات جدارة استحقاقهم لخلافة الرسول قبل غيرهم، وكانت لهم جيوش قوية متلهفة على توسعات جديدة، وكان نفاذ صبرها يسبق أحيانا نظامها كما أن الامبراطورية الإسلامية، في بداية تنظيمها ، كانت دائما في حاجة الى التوسع من أجل جيشها وبقائها.

وهذه الأسباب كلها مادية، كما هو واضح، تنحصر في خوف العرب وعجزهم عن مواصلة الفتوحات بالمشرق واعتمادهم على غيرهم خاصة على السوريين ، ورثة الحضارة الهلينية في تحقيق أغراضهم التوسعية وأطماعهم في ثروات الغير، وتحقيق أهداف سياسية، وتفادي مشاكل داخلية، أي أنها في نظرهم مادية بحتة. أما الجانب الروحي فلم يحظ بأي اهتمام من طرفهم.

وفي تناولهم لمراحل الفتح يلاحظ أنهم يلخصون «بأسلوبهم» ما أوردته المصادر العربية عن الغزوات التي قامت بها جيوش المسلمين انطلاقا من مصر والتي وصلت الى طرابلس سنة 22 هـ؛ وهنا يتوقف بعضهم عند رواية ابن عبد الحكم التي تقول بأن أمير مصر عمرو بن العاص وجه رسالة الى الخليفة عمر بن الخطاب جاء فيها «ان الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين افريقيا الا تسعة أيام. فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل» فكتب إليه عمر: «لا إنها ليست بإفريقية» ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت» وفي رواية أخرى أنه جاء في رد الخليفة: «افريقيا المفرقة ثلاث مرات، لا أوجه اليها أحد ما مقلت عيني الماء»[2].

وقد علّق Gautier (E.F.) على جواب أمير المؤمنين عمر بقوله: ان هذه الكلمة التاريخية (ويعني بها: المفرقة غادرة) على لسان عمر تعني تنبؤا، ومن المحتمل أن تكون مزيفة لكنها ولا شك، تلخص في شكل رواية شعبية، وَهَن الرأي العام المتأثر بكثرة الإخفاقات[3] الناجمة عن المقاومة التي جابه بها البربر العرب فيما بعد.

كما يذهب Julien (Ch' A.) ، إلى أن هذه الرسالة، وإن لم تكن مطابقة للأصل، تعكس على كل حال، عواطف العداء التي صار يكنها، فيما بعد، عرب القرن التاسع (م) للأرياف الإفريقية المليئة بالفخاخ[4].

ولم يشر كل من Gautier و Julien ولا غيرهما من المؤرخين المعتمدين هنا الى رواية موازية أوردها ابن عذاري عن هذه القضية ومفادها أن عمراً : كتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يخبره بما أفاء الله عليه من النصر والفتح وأن ليس أمامه الا بلاد افريقية وملوكها كثير، وأهلها في عدد عظيم، وأكثر ركوبها الخيل، فأمره بالانصراف عنها...»[5].

كما توقف بعضهم الآخر عند رواية ثانية لابن عبد الحكم تخص ابنة البطريق جرجير، حاكم إفريقية الذي قتله المسملون بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهزموا جيشه في موقعة سبيطلة سنة 27 هـ، وصارت ابنته «لرجل من الأنصار، في سهمه، فأقبل بها منصرفا قد حملها على بعير له فجعل يرتجز:

يا ابنة جرجير تمشي عقبتك إن عليك بالحجاز ربتك
لتحملن من قُباء قِربتك

قالت: «ما يقول هذا الكلب؟» فأُخْبِرت بذلك فألقت بنفسها عن البعير الذي كانت عليه فاندقت عنقها فماتت[6].

ومن بين المؤرخين المتوقفين عند هذه النقطة أيضا Gautier الذي يميل الى الاعتقاد أن «يمينة»[7] هذه لم يكن لها أي وجود ولكن قصتها في نظره، ترمز الى ظروف الرعب المحزن الذي يصحب بالضرورة كل الثورات، فهي تمثل حالة وقوع الأرستقراطيين الرقاق (Rafinés) فجأة بين أيدي أنصاف الهمجيين، وهي أكثر ألما بالنسبة لامرأة[8]. وهذه الأسطورة كما يسميها Terrasse (H.) يتبيّن في نظره أن هؤلاء الأفارقة المتحضرين يعتبرون جنود الإسلام برابرة[9] ونفس الرأي يذهب اليه Julien (Ch.A).[10].

ولا يذكر أي واحد من هؤلاء أن ابن الأثير الذي يروي نفس القصة لا يشير الى عملية الانتحار[11]. كما أنهم لم يشيروا الى ما تتفق عليه بقية المصادر العربية وملخصه أن جرجير أمر مناديا ينادي في الناس أثناء الحرب : أن من قتل أمير العرب عبد الله بن سعد زوّجه ابنته هذه وأعطاه ما معها من الجواري والنعمة أو يعطيه معها مائة ألف دينار. ولما بلغ ذلك الى ابن سعد أمر هو الآخر من ينادي في أصحابه أن

من أتاه منهم برأس جرجير نفله مائة ألف دينار وزوّجه ابنته (ابنة جرجير) ومن معها واستعمله على بلده، فلما قتله عبد الله بن الزبير كانت من نصيبه[12].

فأصحاب هذه المدرسة كما تبين، من خلال المثالين السابقين، يختارون من الروايات ما يسمح لهم بتفسيرات وتعليقات تناسب أهواءهم، فقد اختاروا رواية ابن عبد الحكم في المراسلة التي جرت بين الخليفة عمر بن الخطاب ووالية عمرو بن العاص لانها مكنتهم من التوصل الى رأي يحاولون فيه إثبات شدة مقاومة البربر للفتح وأهملت رواية ابن عذاري لانها لم تسمح لهم بمثل ذلك.

واختاروا أيضا رواية نفس المصدر فيما يتعلق بمصير ابنة جرجير لانها مكنتهم من استنتاج رأي آخر حاولوا فيه اثبات وحشية العرب المحتلين الا أنهم في الحالتين لم يستندوا كما هو واضح الى المنطق السليم.

وعن موضوع انسحاب ابن سعد من افريقية بعد انتصاره في موقعة سبيطلة يرى Marçais (G.) ان عدم استغلال العرب لانتصارهم المعتبر يعود الى تخلف استراتيجيتهم أو عدم وجود قوات كافية لهم بالمنطقة أو أنهم تلقوا في هذا الشأن أمرا من الشرق[13]. أما Julien (Ch.A.) فيرد ذلك الى احتمال خشية ابن سعد من هجوم مضاد مدعم بحصون الشمال التي كان عاجزا عن حصارها[14] في حين أن Mercier (E.) يعلل ذلك الرجوع الى أن العرب الذين كانوا مثقلين بغنائم لم يكن يهمهم سوى العودة الى المشرق لحكاية قصة انتصارهم. ويضيف أنه لم تكن للعرب آنذاك أية فكرة للاحتلال الدائم ولا اية محاولة لنشر الإسلام ولم يكن لهذه الحرب الأولى هدف سوى جمع الغنائم[15] كما يفند Mercier ما ذكرته بعض المصادر العربية من أن ابن سعد ترك ممثلا له في سبيطلة بحجة أنه لا يوجد أي دليل على ذلك[16].

وهنا يتضح جليا أن الفراغ الذي تركته المصادر العربية قد استغل عن طريق وضع افتراضات مختلفة لكنها متكاملة ملخصها أن العرب المتخلفين استراتيجيا انسحبوا بعد تحقيق هدفهم الوحيد المتمثل في التشبع بالغنائم وقبل أن يفاجئهم البيزنطيون وربما تلقوا أوامر في هذا الشأن من المشرق أو لم تكن لهم قوات عسكرية كافية.

وبعد الإشارة الى أحداث الفتنة الكبرى في بلاد المشرق العربي وتأثيرها على الفتوحات لمدة تتراوح بين سبع عشرة وعشرين سنة يفترض Marçais (G.) ولا تخالفه في ذلك بقية المراجع، أن غيابهم بالمغرب يعود الى كون أزمات المشرق قد امتصت نشاطهم وإن كان الاخباريون (ويقصد المؤرخون العرب) لم يهتموا بالبحث عن سبب ذلك[17].

وفيما يخص موقف البيزنطيين أثناء ذلك الغياب فإن Gautier مثلا فضل السكوت عنه في حين يقول Mercier «إنه كان على البيزنطيين الذين علمتهم التجربة أن ينظموا المقاومة بصفة حقيقية ولكنهم بدلا من أن يضموا اليهم الأهالي ويشرحوا لهم أنه من مصلحتهم التصدي «للمحتلين» وتدريبهم على النظام فإن الحكام الإغريق فصلوهم عنهم باستبدادهم وابتزازاتهم»[18].

ويرد Terrasse عدم استغلال إفريقية البيزنطية لهذا الوقت، الى الخلافات المذهبية القائمة بين الامبراطور البيزنطي Le Basileux ومسيحيي إفريقية الذين كانوا أوفياء لروما ويضيف أن سيطرة بيزنطة كانت مقصورة على شمال ووسط تونس[19].

ويتفق Julien مع Terrasse في رأيه هذا مستطردا أن أحد المغتصبين يسمى Gennadius يكون قد انتهز الفرصة لتأسيس إمارة مستقلة دامت عدة سنوات، ولما هدده خصمه، كان الإمبراطور يقف وراءه،فاوض العرب لنيل مساندتهم[20].

أما Marçais (G.) فيستعرض بتصرف ما ذكره المؤرخون العرب من أن البربر ساندوا جناديوس Gennadius الذي خلف جرجير بعد موته في تسيير شؤون افريقية ثم تخلوا عنه لينضموا الى إغريقي آخر هو إيلوثير Eleuthère ، مما جعل الأول يتوجه الى المشرق ويستنجد بالخليفة معاوية، ويواصل Marçais (G.) قائلا: وبما أننا نعرف من جهة أخرى أن الامبراطور قنسطانز الثاني، قد بعث من صقلية في نفس الوقت تقريبا، البطريق نقفور، Nicéphore لاسترداد المقاطعة فنحن نعتقد أنه بإمكاننا بناء تسلسل الأحداث كما يلي: بعد رحيل العرب اراد جناديوس الإغريقي أن يجمع إرث الحاكم

جرجير غير أن موت هذا المغتصب أوحى للإمبراطور قنسطانز الثاني بمشروع الاستيلاء على افريقية، وكان أغلب الأفارقة يساندون Eleuthère المناهض لجناديوس Gennadius الذي كان على استعداد للخضوع. وقد جمع الامبراطور قواته فاستعادت البلاد في حين التفت جناديوس الذي تخلى عنه أنصاره الى العرب[21] وحسب المصادر العربية فإن الامبراطور البيزنطي أرسل الى افريقية، بعد انسحاب عبد الله بن سعد منها، بطريق يقال له «أوليمة» وأمره أن يأخذ من أهلها نفس المبلغ الذي صالحوا عليه المسلمين فلما حلّ بقرطاجة وأخبرهم بذلك رفضوا أن يدفعوا له أكثر مما كانوا يؤدونه قبل ذلك[22].

وكان القائم بأمر إفريقيا، حسب ابن عذاري المراكشي، رجلا يقال له «حُباحِبة» فطرد أهلها أوليمة الواصل اليهم، واجتمع رأيهم على تقديم الأرطيون، وسافر حُباحِبة الى الخليفة معاوية بالشام فوصف له حال إفريقية وسأله أن يبعث معه جيشا من العرب فوجه معه معاوية بن حديج[23] أو أن البطريق الجديد هو الذي طرد القائم بأمر إفريقية ، فسافر الى معاوية بالشام، كما ذكر ابن الأثير[24]؛ وعند حلول ابن حديج بإفريقية وجد نار الفتنة مشتعلة بها فهزم جيشه ثلاثين ألف رجل أخرجهم اليه البطريق الرومي[25]، أو ان ملك الروم بعث الى افريقية بطريقا يقال له نجفور في ثلاثين ألفا مقاتل فنزل الساحل وأخرج اليه ابن حديج عبد الله بن الزبير في خيل كثيفة فسار حتى نزل على شرف عال ينظر منه الى البحر، بينه وبين سوسة اثنا عشر ميلا ، فلما بلغ ذلك نجفور أقلع في البحر منهزما من غير قتال[26].

ومن خلال المقارنة بين معلومات هؤلاء وآراء أولئك المؤرخين يبدو جليا أن الفرنسيين منهم تغاضوا تماما عن موضوع الضرائب التي حاول البيزنطيون فرضها على الأهالي بعد انسحاب المسلمين وكأنهم يريدون بذلك تفادي ما من شأنه أن يسيء لسمعتهم.

ويحاول Marçais (G.) استغلال الأخبار المتقطعة للمصادر العربية كي يبني ما أسماه بتسلسل الأحداث، لكن ما توصل إليه، على ما يبدو ، لا يتماشى مع المنطق بقدر ما يتماشى مع ما في نفسه من محاولة تحسين صورة البيزنطيين وتبرئتهم من التقصير في القيام وواجبهم الدفاعي عن المنطقة؛ كما يحاول كل من

Terrasse و Julien أن يلتمسا لهم العذر بما حدث من خلاف مذهبي بينهم وبين مسيحيي افريقيا الأوفياء لروما حسب رأيهما.

أما Mercier فيؤنبهم لانهم في نظره بدلا من أن يقوموا بدروهم في توعية الأهالي وتعبئتهم ضد المحتلين راحوا يستبدون بهم ويبتزونهم. والجديد الذي يدور حول حملة ابن حديج هو ما أسماه Mercier (E.) : «بالمنازعات الكبيرة» التي دارت حول تقسيم الغنائم والتي منعت، حسب رأيه العرب من الاستفادة بانتهارهم لمحق ما تبقى من السيطرة البيزنطية بإفريقية[27] وكذلك باعتناق من أسماهم Marçais (G.) «بعض الانتفاعيين للإسلام» آنذاك[28].

وفيما يخص النقطة الأولى فإن ملخص ما ورد في المصادر العربية، ان المسلمين فتحوا مدينة جلولاء ودخلوها عنوة وغنموا ما فيها على يد عبد الملك بن مروان أو بفضله فأراد أن يحابي أصحابه واخوانه في الغنائم وتنازع لهذا السبب مع ابن حديج الذي بعث يخبر الخليفة معاوية بالأمر فجاء الرد بتقسيمها بالعدل على كافة أفراد الجيش على أساس سهمين للفرس وسهم لصاحبه فصار نصيب كل فارس ستمائة دينار وعاد بعد ذلك معاوية الى مصر حيث ولاه عليها الخليفة بدلا عن عبد الله بن عمرو بن العاص[29].

فمن الواضح أن تقدير Mercier للمنازعات بين العرب ولنتائجها مبالغ فيه، وهو يريد بهذه المبالغة أن يثبت أن هدف العرب مادي صرف، أما كلمة «الانتفاعية» التي وصف بها Marçais (G.) الذين اعتنقوا الإسلام فهي دليل على التعصب المفعم بالروح الصليبية التي يلمسها كل قارئ لكتاباته التاريخية عن العرب والمسلمين.

وعن حملة عقبة الأولى يرى Marçais (G.) أنه: كان يتصرف بمنهج أكثر من أسلافه وأن أغراضه كانت أوسع. وفي ظروف أكثر ملاءمة من ذي قبل، لان الامبراطور قنسطنطين يوغونة Constantine Pogonat الذي خلف قنسطانز الثاني بعد اغتياله، استدعى آنذاك كل القوات البيزنطية بالغرب كي يتصدى بها لأحد المغتصبين ظهر بصقلية، تاركا فراغا كبيرا بإفريقية، فمن المؤكد كما يضيف Marçais أن عقبة أثناء تقدمه بالجريد وبإفريقية Byzacère لم

يتقابل مع الروم، فلا صدام مسلح ولا حصار للمدن: فالقلاع كانت، وهي ولا شك فارغة من المدافعين، تسقط من ذاتها، وكان هذا الانتصار الذي يظهر سهلا على حساب البربر وأغلبهم مسيحيون[30].

ويقول عنه Mercier (E.) أنه الأول من الغزاة العرب الذي كان يشترط على المنهزمين اعتناق الإسلام والخضوع في آن واحد[31].

وإذا تأملنا ما كُتب في شأن عقبة هنا فإن أول ما يلفت نظرنا هو أن Marçais (G.) يلتمس مرة أخرى عذرا للبيزنطيين الذين انشغلوا في نظره بمشاكلهم الداخلية ومن ثم أتيحت الفرصة لعقبة كي ينتصر على البربر وأغلبهم مسيحيون.

وكذلك تشويه الحقيقة الواضح من خلال تعبير Mercier (E.) الذي يقول فيه بأن عقبة كان «يشترط على المنهزمين اعتناق الإسلام والخضوع في آن واحد ، » والمبادئ الإسلامية كما هو معروف تقوم على أساس المساواة بين كل المسلمين، فهل Mercier كان يجهل ذلك؟ ويُلاحظ أن مختلف المؤرخين الفرنسيين لا ينسون الحديث عن استعماله العنف ضد البربر حتى أنهم ليُصورونه عبارة عن وحش متعطش للدم والمال ولم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث عن السبب هنا مع أن المصادر العربية التي استغلوا مادتها في هذا الشأن تقول انه كان شديدا قاسيا على الذين نقضوا ما سبق لهم أن قطعوا على أنفسهم من عهود للمسلمين أو الذين كانوا يتحصنون منه بقلاعهم[32] أي جيوب المقاومة، فهل يمكن تفسير عدم تطرق أولئك المؤرخين لهذه الأخبار لتعليل شدة عقبة الا لخشيتهم من أن ذلك سيؤدي ، لا محالة، الى تبرير أعماله ورفع منزلته التاريخية وهو لا يتماشى مع أغراضهم بطبيعة الحال؟ وهل يمكن تفسير سكوتهم عما ذكره ابن الأثير مثلا، من انضمام من أسلم من البربر اليه فكثر جمعه[33] بغير ذلك؟

وعن تأسيس القيروان يذهب ابن عذاري المراكشي الى القول أنه «عندما اتفق رأي عقبة وأصحابه على انشاء مدينة «تكون عزا للإسلام الى آخر الدهر!»..» وأن يكون أهلها مرابطين..» اقترح على عقبة أن تكون قريبة من البحر لتكون صالحة للجهاد والرباط، فقال عقبة: «اني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة،

فيملكها! ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها صاحب البحر. الا وقد علم به، وإذا كان بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون!» فلما اتفق رأيهم على ذلك. قال: «قربوها من السبخة، فإن دوابكم الإبل، وهي التي تحمل اثقالكم، فإذا فرغنا منها لم يكن لنا بد من الغزو والجهاد، حتى يفتح الله لنا منها الأول فالأول وتكون إبلنا على باب قصرنا في مراعيها، آمنة من عادية البربر والنصارى»[34]. أي أن العامل الأول الذي قرأ المسلمون حسابه في تأسيس القيروان حسب هذا النص هو البعد عن ساحل البحر حتى لا تتعرض لهجوم بيزنطي مفاجئ.

والعامل الثاني هو القرب من السبخة لتوفير المراعي للإبل، أداة النقل والحرب آنذاك.

والعامل الثالث هو استخدام هذه القاعدة في مواصلة فتح المنطقة. وكلها عوامل تبدو مقنعة وكافية ومهما يكن فليس هناك أي مجال للربط بين تأسيس القيروان وبين ما أطلق عليه «المقاومة في الأوراس» ولا بين موقعها وموقعه لسبب بسيط وهو أن المسلمين حتى ذلك الوقت لم يعرفوا الأوراس وأكبر دليل على ذلك أن عقبة نفسه عندما عاد من حملته المشهورة االتي وصل فيها الى البحر المحيط، بعد حوالي عشر سنوات من تأسيسها، ترك معظم أصحابه يلتحقون بها في حين تخلف هو مع عدد قليل منهم بطبنة ثقة منه بما نال من العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه وراح يتجول في المنطقة الى أن قتل بتهودة من ضواحي الأوراس[35].

فهل كان عقبة سيغامر بنفسه لو أنه كان يعلم أو يعتبر الأوراس «قلعة المقاومة البربرية أو البربرية البيزنطية» كما يحاول المؤرخون الفرنسيون تصويره؟

فمن المقارنة بين النصين العربي والفرنسي اللذين تمكنت من صياغتهما إذا تبين لي ان مادة الثاني ـ تعتمد كلية على مادة الأول، ولا تختلف معها الا في الأسلوب وبعض الإضافات من تعليقات واستنتاجات وآراء خاصة غالبا ما تدخل في اطار ملئ الفراغات التي يتركها المؤرخون العرب، كليا أو جزئيا، وهي لا تتماشى دائما مع المنطق السليم.

كما يقتصر أصحابها على اختيار الروايات التاريخية التي تمكنهم من استنتاج آراء تنسجم واتجاهاتهم العقائدية والسياسية وإهمال كل ما لا يتيح لهم ذلك أو ما من

شأنه أن يسيء الى من يريدون لهم صورة حسنة كالبيزنطيين أو تحسين الصورة التي يريدون تشويهها كصورة عقبة والمسلمين عامة.

وهي مكتوبة بأسلوب عاطفي يستشف من خلاله كراهية أصحابها للعنصر العربي والدين الإسلامي وإشفاقهم على البربر وخاصة المسيحيين منهم في مواجهتهم الفاتح العربي والاستخفاف بمن ساندوه واعتنقوا دينه منهم كما يستشف منها عطف كبير على البيزنطيين.

وبذلك فهي تفتقر الى ما يتطلبه البحث التاريخي من موضوعية وروح علمية.

وللأسف الشديد فإن أصحاب هذه المدرسة هم الذين تولوا كتابة تاريخنا على هذا المنوال وإذا أردنا أن يكون لنا كغيرنا تاريخ ينبغي ـ إعادة غربلتها كلها وبما أنه لا توجد في الفترة الخاصة بالعصر الوسيط مثلا مادة أولية جديدة يمكن الاعتماد عليها لتطوير الكتابة التاريخية لبلادنا سنضطر، إذا أردنا الإعادة الى استخدام نفس ما استخدموه بطريقة موضوعية دون الاستغناء عن كل أعمالهم، فمنها ولا شك ما هو صالح وان كان قليلا وهذا ينبغي الاحتفاظ به، ومنها ما هو غير صالح وهذا ينبغي التوقف عنده وتسليط الأضواء عليه بطريقة علمية وموضوعية حتى لا تقع أجيالنا ضحيته.

الهوامش:

(1) Terrasse H. في كتابه Histoire du Maroc, p. 77

(2) فتوح إفريقيا والأندلس، ص 33ـ34.

(3) Le Passé de l'Afrique du Nord, p 253.

(4) Histoire de » » T. 2, p. 13

(5) البيان المغرب، جـ 1، ص 18.

(6) فتوح افريقيا والأندلس، ص 38ـ39.

(7) لا نُعرف من أين أتى Gautier بهذا الاسم الذي لا يوجد في كتاب ابن عبد الحكم.

(8) Le passé de l'Afrique du Nord, p. 238.
(9) Histoire du Maroc, pp. 78-79.
(10) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, p. 14.

(11) أنظر الكامل في التاريخ، جـ 3، ص 89ـ90.

(12) نفسه، ابن عذاري: البيان المغرب، جـ 1، ص 10 فما بعدها، ابن أبي الدينار: المؤنس، ص 26.

(13) La Berberie musulmane et l'Orient au moyen âge, pp. 29-30.
(14) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, p. 14.
(15) « l'tablissement des Arabes dans l'Afrique Septentrionale, p. 55.

(16) Id. note 2 T ، نقل Mercier هذا الخبر عن النويري وابن عذارى، ويوجد أيضا في كتاب أبن أبي دينار (المؤنس، ص 27).

(17) La Berberie musulmane et l'orient au moyen âge, p. 30 أنظر أيضا : Julien Gh. A op. cit. p. 15.

(18) Terrasse H. op. cit., p. 79. Mercier E. op. cit., p. 55;
(19) Histoire du Maroc, p. 79.
(20) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, pp. 15-16.
(21) La Berberie musulmane et l'orient au moyen âge, p. 30-31.

(22) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 3، 91ـ92، ابن عذاري: البيان، 1، 17.

(23) ابن عذاري: نفس المصدر ص 17.

(24) ابن الأثير : نفس المصدر، ص 92.

(25) ابن عذاري: المصدر السابق، ص 17؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ص 92، إبن خلدون: كتاب العبر، جـ 6، ص 216.

(26) ابن عذاري: المصدر السابق، ص 16.

(27) Histoire de l'tablissement des Arabes, p. 5. (28) Op. cit., p. 31.

(29) عن هذا الموضوع، انظر ابن عبد الحكم: فتوح، ص 48ـ49؛ ابن عذاري: البيان، 1، 17 فما بعدها، ابن الأثير: الكامل، 3، 92، ابن خلدون: العبر، 6، 216.

(30) La Berberie Musulmane, p. 31.

(31) Histoire de l'tablissement des Arabes, p. 57.

(32) عن هذا الموضوع أنظر ابن عبد الحكم: فتوح، ص 50 فما بعدها؛ ابن عذاري: البيان، 1، 19، ابن الأثير: الكامل، 3، 465.

(33) الكامل، 3، 465.

(34) البيان المغرب، 1، 19ـ20.

(35) عن هذا الموضوع، أنظر ابن الأثير: الكامل، 4، 106؛ ابن عذاري: البيان، 1، 29؛ ابن خلدون: العبر، 6، 217.

ثورات الخوارج بالمغرب الإسلامي
ابتداء من سنة 122 هـ / 739 ـ 740 م
في المصادر العربية قديما
ودراسات المدرسة الغربية حديثا 739 ـ 740 م

بحاز ابراهيم

لا تزال ثورات الخوارج ببلاد المغرب (122 هـ/739ـ740م) بحاجة الى مزيد من البحث والتقصي لاسبابها وعواملها وأحداثها وأهدافها ونتائجها المحققة وغير المحققة. ورغم ما كتب عنها قديماً وحديثا ، فهي عندي، في كثير من جوانبها ، غامضة غير واضحة ، وبالتالي ، فأنه لا يتسنى لنا فهم أعماق هذه الثورة ولا سَبْرَ أغوارها الا بنقد مصادرها القديمة ودراساتها الحديثة خاصة ما يتعلق منها بدراسات المدرسة الغربية.

ومن هنا فإن الإشارات التي سأتناولها في موضوعي هذا، لا تمس الثورة في حد ذاتها ولا في أحداثها ولا في أهدافها وانما تهتم بمن كتب عنها تريد رفع اللثام عن أغراضهم وأهدافهم ومنطلقاتهم ونظرتهم الى الثورة والثوار.

ولقد رأيت تقسيم كلمتي هذه الى النقاط التالية:

أولا: أهم أحداث الثورة في المغرب الإسلامي

ثانيا : المصادر القديمة ودراسات المدرسة الغربية عرض وتحليل.

ثالثا : ثورات الخوارج بين المؤرخين قديما والمدرسة الغربية حديثا.

إن ثورة الخوارج، ثورة متشابكة أحداثها، متداخلة عناصرها غامضة أهدافها. ولا أدل على ذلك من تعدد تسميات هذه الثورة، مثل: ثورة البربر،